السَّنة التِّسعون بعد المئة

فيها خلع رافعُ بن الليثِ بنِ نصرِ بن سيَّارٍ هارونَ بسَمَرْقَنْدَ وخرج عن الطَّاعة.

وسببُه: أنَّ يحيى بنَ الأشعث الطائيَّ كان قد تزوَّج ابنةَ عمٍّ له بسمرقند، ثم قدم بغدادَ فأَقام بها مدَّة، وبلغها أنَّه قد تسرَّى ببغداد، فطلبت الخلاصَ منه، وكان رافعُ بن الليثِ مقيماً بسمرقند، فطمع في مالها وجمالِها، فدسَّ إليها من قال لها: لا سبيلَ لك إلى الخلاص منه حتى ترتدِّي عن الإِسلام، فتَبِينينَ منه ثم تحلِّين للأَزواج، فارتدَّت ثم أسلمت، فتزوَّجها رافع، وبلغ يحيى بنَ الأشعث، فأَخبر الرشيد، فكتب إلى عليِّ بن عيسى بنِ ماهانَ بأن يفرِّقَ بينهما، وأن يطافَ برافعٍ على حمارٍ مقيَّداً في سمرقند؛ ليكونَ نَكالاً لغيره، ففعل ذلك عليُّ بن عيسى وحبس رافعاً، فهرب من الحَبْس، وتبعه جماعةٌ ممَّن صادرهم عليُّ بن عيسى، فسار إليه عليُّ بن عيسى من مَرْو[1]، فالتقيا على سمرقند، فهزمه رافع، فعاد إلى مروَ وأقام يجمع العساكر.

وفيها أَسلم الفضلُ بن سَهْلٍ على يد المأمون.

وفيها دخل الرشيدُ بلادَ الرُّوم في مئةٍ وخمسةٍ وثلاثين ألفاً من الجند ممَّن يأكل الدِّيوان سوى المطَّوِّعة، وبثَّ العساكرَ في الرُّوم، ونازل هِرَقْلَة، فافتتحها في شوَّال، فهدمها وقتل أهلها، وافتتح شَراحيلُ بنُ معنِ بن زائدةَ حصنَ الصَّقالِبَة ودَبْسَة[2]، وافتتح يزيدُ بن مَخْلَدٍ الصَّفصاف، وسَبَوا خلقاً عظيماً من الرُّوم ومن جزيرة قُبْرُص، فبلغ عددُهم ستَّةَ عشر ألفاً، فقدم بهم الرقَّة[3]، وتولَّى بيعَهم القاضي أبو البَختري، فبلغ أُسْقُفُّ قبرصَ ألفَي دينار.

---

(١) الذي سار إليه ابنه عيسى بن علي. انظر تاريخ الطبري ٨/ ٣٢٠، والمنتظم ٩/ ١٧٨، والكامل ٦/ ١٩٥، وتاريخ الإسلام ٤/ ٧٩٣.

(٢) في (خ): دليسة، والمثبت من الطبري ٨/ ٣٢٠، والمنتظم ٩/ ١٨٢، ونسخة من الكامل ٦/ ١٩٦ أشار إليها محققه.

(٣) في المصادر عدا تاريخ الإسلام ٤/ ٧٩٣: الرافقة. والرافقة بلد متصل البناء بالرقة، كما في معجم البلدان (الرافقة).

واتَّخذ هارونُ في هذه الغَزاةِ القَلَنْسُوة، وكتب عليها: حاجٌّ غازٍ، فكان يَلبَسها، وقال أبو المعلَّى[١] الكلابي: [من الوافر]

فـمَـن يَـطـلُـبْ لـقـاءَك أو يُـرِدْهُ ... فـبـالـحَـرَمَـيـن أو أَقـصـى الـثُّـغـورِ

فـفـي أرض الـعـدوِّ عـلـى طِـمِـرٍّ ... وفـي أرض الـبَـرِيَّـة[٢] فـوقَ كُـورِ

ولمَّا عاد الرشيدُ من الرُّوم، بعث إليه نقفورُ بالجزية عن رأسه ورؤوسِ أهله وبَطارِقَتِه وسائرِ أهله وبلدِه خمسين ألفَ دينار، عن رأسه أربعةَ دنانير، وعن ابنه إستبراقَ[٣] دينارين، وعن كلِّ رأسٍ من بطارقته ديناراً[٤]. وكانت جاريةٌ من أهل هِرَقْلَةَ قد سُبيت، فكتب نقفورُ إلى الرَّشيد: أمَّا بعد: أيُّها الملك، فإنَّ لي إليك حاجةً لا تضرُّك في دِينك ودُنياك، هيِّنةً يسيرة، أن تهبَ لي جاريةً من بنات هرقلةَ كنتُ خطبتُها على ابني، فإن رأيتَ أن تُسعِفَني بحاجتي فعلتَ. واستهداه سُرادقاً وطيباً ودِرياقاً[٥]. فجهَّز الرشيد الجاريةَ في سُرادق كان نازلاً فيه، وأعطاها الحُلِيَّ والحُلَلَ والجواهر والفُرش والطِّيب والدِّرياق، وبعث إليه هدايا وألطافاً، وشرط عليه ألَّا يَعْمُرَ هِرَقْلَة، وأن يبعثَ إلى الرشيد في كلِّ سنة ثلاثَ مئة ألفِ دينار.

وقال الهيثم: نازل هرَقْلةَ فاستصعب أمرُها، فقال في نفسه: الحربُ خَدْعَة، فنادى في الناس: اِقطعوا الصخورَ وابنُوا فهذه دارُ مُقام، فشرعوا في ذلك، فلمَّا رأى أهلُ هرقلةَ ذلك، جعلوا ينزلون من السُّور في الليلِ في الجبال، فلما قلَّ أهلُها، نصب عليها المَجانيق، وجدَّ في القتال، ففتحها عَنوة، ووجد بها جاريةً فائقةَ الجمال، فاتَّخذها لنفسه، فلمَّا عاد إلى الرَّافِقَةِ، بنى لها حِصْناً بين الرافقةِ وبالِس[٦]، وسمَّاه هرقلة،

(١) كذا في تاريخ الإسلام ٤/ ٧٩٣، والبداية والنهاية ١٣/ ٦٧٤، وفي تاريخ الطبري ٨/ ٣٢١: أبو المعالي. وفي تاريخ بغداد ٩/١٦: أبو السعلى، وفي مختصر تاريخ دمشق ٢٧/ ٦: أبو السعلي.

(٢) كذا في تاريخ الإسلام وبعض النسخ الخطية لتاريخ الطبري كما بهامشه وفي مطبوع تاريخ الطبري والبداية والنهاية: الترفه، وفي الوافي ٢٧/ ١٩٨: الثنية، والصواب: البنية، كما في تاريخ بغداد ومختصر تاريخ دمشق. والبنية الكعبة.

(٣) في (خ): استبراب، والمثبت من تاريخ الطبري ٨/ ٣٢١.

(٤) في الكامل ٦/ ١٩٦: وعن بطارقته كذلك .اهـ أي: دينارين.

(٥) الدرياق والترياق: دواء مركب. القاموس المحيط (ترق، درق).

(٦) بلدة بالشام بين حلب والرقة. معجم البلدان.

يحاكي به هرقلة، وقد دَثَر. ولمَّا بعث نقفورُ يطلبها، جهَّزها إليه، فبعث نقفورُ بجزيته وجزيةِ أهلِ بلده، وقال أبو العتاهية: [من الطويل]

إمامَ الهُدى أصبحتَ بالدِّين مَعْنيّا ... وأصبحتَ تَسقي كلَّ مُسْتَمْطِرٍ رِيّا
إذا ما سَخِطتَ الشيءَ كان مُسخَّطاً ... وإن ترضَ شيئاً كان في الناس مَرضيّا
لك اسمانِ شُقّا من رشادٍ ومن هُدى ... فأنت الذي تُدعى رشيداً ومَهدِيّاً
بَسَطتَ لنا شرقاً وغرباً يدَ العُلا ... فأَوسعتَ شرقيًّا وأَوسعتَ غربيّا
ووشَّيتَ وجهَ الأرضِ بالجود والنَّدى ... فأصبح وجهُ الأرضِ بالجود مَوشيّا
وأنت أميرُ المؤمنين فتى التُّقى ... نَشَرتَ من الإحسان ما كان مَطويّا
قضى اللهُ أنْ صفَّى لهارونَ مُلكَه ... وكان قضاءُ اللهِ في الخلق مَقضيّا
فأصبحت الدُّنيا مقرًّا لمُلكه ... وأصبح نقفورٌ لهارونَ ذِمِّيّا[1]

[وفيها حجَّ بالناس عيسى بنُ موسى الهادي.

وفيها توفي][2]

سَعْدون المَجْنون

[من عُقَلاء المجانين ببغداد. روى أبو نُعيم الحافظُ بإسناده عن] الفَتْح بنِ شَخْرَف [قال][3]: كان سعدون صاحبَ محبَّة لله تعالى، صام ستِّين سنةً حتى خفَّ[4] دماغُه، فسمَّاه الناسُ مجنوناً لتردُّد قولِه في المحبَّة، فغاب عنَّا زماناً، فبينا أنا قائمٌ على حلقة ذي النُّون المصريِّ، وإذا به عليه جبَّةُ صوفٍ مكتوبٌ عليها: لا تُباع ولا تُشترى، فسمع كلامَ ذي النُّون، فصرخ وقال: [من الطويل]

ولا خيرَ في شكوى إلى غيرِ مُشْتَكًى ... ولا بدَّ من شكوى إذا لم يكن صبرُ

[وحدَّثنا غيرُ واحدٍ عن محمَّد بنِ أبي منصورٍ بإسناده إلى يحيى بنِ أيوب قال:]

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٩، والمنتظم ٩/ ١٨٤، وتكملة الديوان ص٦٧٤-٦٧٥ باختلاف يسير.

(٢) من بداية هذه السنة بدأت النسخة (ب)، وأحداث هذه السنة فيها مقتصرة على ما بين حاصرتين.

(٣) في (خ): قال الفتح بن شخرف.

(٤) في (خ): جف. والمثبت من (ب) وهو الموافق لحلية الأولياء ٩/ ٣٧١، والمنتظم ٩/ ١٨٥، والبداية والنهاية ١٣/ ٦٧٥.

خرجتُ يوماً إلى مقابر [باب][1] خراسانَ، فإذا رجلٌ قد دخل المقابرَ وهو مُقَنَّع، فجعل كلَّما رأى قبراً مُنْخَسِفاً وقف عليه، فتأمَّلته، فإذا به سعدون، كلَّما وقف على قبرٍ بكى، وكان يكون في كوخٍ في مقابر عبدِ الله بنِ مالك، فقلت له: يا سعدون، ما تصنع ها هنا؟! فقال: يا يحيى، هل لك أن تجلسَ فتبكيَ على هذه الأبدانِ قبل أن تبلَى فلا يبكي عليها باك.

ثم قال: يا يحيى البكاءُ على القدومِ على الله أَولى من البكاءِ عليها، ثم قال: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠]. ثم صاح صيحةً عظيمةً وقال: واغوثاهُ مما يقابلني في الصُّحف. قال يحيى: فغُشي عليّ، وأَفقتُ وهو جالسٌ يمسح وجهي بكمِّه ويقول: يا يحيى، مَن أشرفُ منك لو مُتَّ في هذا المقام؟

[وروى ابنُ باكويه الشيرازيُّ عن ذي النُّون المصريِّ قال:][2] خرج الناسُ يَستسقون بالبصرة، فكنت ممَّن خرج، فبينا أنا مع الناس، إذا بيدَين قد قبضتا على رِجلي، فقلت: مَن أنت؟ خلِّ عنِّي، فقال: أنا سعدون، أين تريد يا أبا الفَيْض؟ قلت: أريد المُصَلَّى أَدعو الله، فقال: بقلبٍ سماويٍّ أو بقلب خاوٍ، قلت: بقلبٍ سماوي، قال: أُنظر ما تقول، لا تُبَهْرِجْ؛ فإنَّ النَّاقدَ بَصير. ثم قال: تدعو وأؤمِّن على دعائك، أو أدعو وتؤمِّن على دعائي؟ قلت: بل تدعو وأؤمِّن على دعائك، فصفَّ قدمَيه ثم قال: إلهي بحقِّ البارحة إلَّا أَمطرتَنا.

قال ذو النُّون: فواللهِ لقد رأيت الغيومَ قد ارتفعت عن اليمين والشِّمال حتى التقت، وجاء المطرُ كأفواه العَزَالي[3]، فقلت له: بحقِّ مَعبودِك، أيُّ شيءٍ كان بينك وبين محبوبِك البارحة؟ قال: لا تدخل بيني وبين قُرَّة عيني، فقلت: لا بدَّ أن تُخبرَني، فأنشأ يقول: [من الوافر]

أَنِستُ به فلا أَبغي سواه ... مخافةَ أن أَضِلَّ فلا أَراهُ
فحسبُك حَسْرةً وضنىً وسُقماً ... بطَرْدِك عن مجالسِ أوليَاهُ

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) في (خ): وقال ذي النون المصري، والمثبت من (ب)، وأخبار سعدون في صفة الصفوة ٢/ ٥١٢ـ٥١٦.

(٣) جمع عزلاء، وهو مصب الماء من الراوية ونحوها. القاموس المحيط (عزل).

[حدَّثنا جدِّي عن عمرَ بنِ ظفرٍ بإسناده إلى] ذي النُّون [قال][١]: رأيت سعدونَ في المَقبُرة في يوم حارّ، وهو يُناجي ربَّه بصوتٍ عالٍ ويقول: أَحَدٌ أَحد، فسلَّمت عليه وقلت: بحقِّ مَن تناجيه إلَّا ما وقفتَ لي، فوقف وقال: قل وأَوجز، قلت: أَوصِني بوصيَّة [أَحفظها عنك، أو تدعو لي بدعوة] فقال: [من المنسرح]

يا طالبَ العلمِ من هنا وهنا ... ومَعدِنُ العلمِ بين جنْبَيكا
إنْ كنت تبغي الجِنانَ تسكنُها ... فاذْرِفِ الدَّمعَ فوق خدَّيكا
وقُمْ إذا قام كلُّ مُجْتَهِدٍ ... وادعُ لكيما يقولَ لبَّيكا[٢]

ثم مضى وقال: يا غياثَ المستغيثين أَغِثني، فقلت له: أُرفقْ بنفسك، فلعلَّه يَلْحَظُك لَحْظةً فيغفر لك، فنفض يدَه من يدي وقال:

أَنِستُ به فلا أَبغي سواه

[وذكر البيتين وقال: أواه.

وروى الخطيبُ عن] الأصمعيِّ [قال] [٣]: مررتُ بسعدون، وإذا هو جالسٌ عند رأس شيخٍ سكرانَ يَذُبُّ عنه، فقلت: ما لي أراك جالساً عند رأسِ هذا؟! فقال: إنَّه مجنون، فقلت: أنت أو هو؟ قال: بل هو، قلت: ولِم؟ قال: لأنِّي صلَّيت الظهرَ والعصرَ جماعة، وهذا ما صلَّى جماعةً ولا فُرادى، قلت: فهل قلتَ في هذا شيئاً؟ قال: نعم، ثم قال: [من المتقارب]

تركتُ النبيذَ لأهل النَّبيذ ... وأصبحتُ أشرب ماءً قَراحا
فإنَّ النبيذَ يُذلُّ العَزيزَ ... ويكسو الوجوه النّضار الصباحا[٤]
فإنْ كان ذا جائزاً للشَّباب ... فما العُذرُ فيه إذا الشَّيب لاحا

فقلت: صدقت.

---

(١) في (خ): وقال ذي النون. وما بين حاصرتين من (ب).

(٢) صفة الصفوة ٢/ ٥١٤ .

(٣) في (خ): وقال الأصمعي.

(٤) كذا في صفة الصفوة ٢/ ٥١٥، ولعل الصواب: ويكسو بذاك الوجوه الصِّباحا، كما في المنتظم والبداية والنهاية ١٣/ ٦٧٦، أو: ويكسو السواد الوجوهَ الصِّباحا، كما في نسخة من البداية والنهاية (طبعة مكتبة المعارف) ١٠/ ٢٠٤ . ووقع في مطبوع المنتظم ٩/ ١٨٦: ويكسو سواد الوجوه الصباحا، وهو خطأ.

[وروى الخطيبُ عن] صالح المُرِّي [قال]: قرأتُ بين يدي سعدون: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨] فصفَّق وقال: مِلاحٌ والله، ثم قال: [من مجزوء الخفيف]

إنَّ في الخُلْد جاريه ... هي حُسْنٌ كما هيه
لو تراها على النَّما ... رِقِ بالغُنْج ماشيه
لتمنَّيت أنَّها ... لك ما عشتَ باقيه
كَتَبَتْ في شقائق الـ ... ـخدِّ سطراً بغاليه
أنا للزَّاهد الذي ... عينُه الدهرَ باكيه[1]

[وذكر جدي في «المنتظم» أنه مات في هذه السنة، ولم أقف على تاريخ وفاته في غير «المنتظم». وفيها توفيِّ]

يحيى بنُ خالد بنِ بَرْمَك

أبو جعفر، وقيل: أبو الفضل، وقيل: أبو عليّ[2] [وقد ذكرنا ترجمةَ أبيه خالدٍ وجدِّه برمك وبدايةَ يحيى. وذكره الخطيبُ فقال:] كان المهديُّ قد ضمَّ إليه هارونَ وجعله في حِجْره، ومات المهديُّ ولقي من الهادي ما ذكرنا، فلمَّا استخلف هارون، فوَّض إليه الأمور، وكان يسمِّيه أبي، ثم نكبه، وقتل ابنَه جعفراً، وحبس يحيى وأهلَه حتى مات في حبسه.

[ذكر طرفٍ من أخباره:

قال علماءُ السِّيَر:] كان [يحيى] من عقلاءِ الرِّجال، الموصوفين بالجُود والنَّوال، والإحسان والإفضال، معدوداً في الأَجواد المُمَدَّحين، والوزراءِ المُحْسنين، حسنَ التأتِّي، ميمونَ النَّقيبة، فصيحَ الكلام، حليماً متجاوزاً سيِّداً، عديمَ النظيرِ في الدنيا.

[وحكى الصوليُّ أنَّه] لم يُطلِق أحدٌ وهو راكبٌ على دابَّته ألفَي ألفِ درهم سواه[ركب يوماً إلى دار الخليفة إلى منزله وقد اجتمع ببابه أربابُ الرواتبِ والقُصَّاد،

(١) صفة الصفوة ٢/ ٥١٥-٥١٦.

(٢) (ب): أبو يحيى. وهو تحريف، وانظر ترجمته في تاريخ بغداد ١٦/ ١٩٥، والمنتظم ٩/ ١٨٨، والسير ٩/ ٨٩، وتاريخ الإسلام ٤/ ٩٩٩.

فقاموا إليه، فقال: مَن هؤلاء؟ فقالوا: أربابُ الرواتب، تأخَّرت الرواتب، قال: ومَن أخَّرها؟ قيل: البوَّاب، فاسترجع، قال: تُطلَق] وتسمَّى إطلاقَ الهُوِيّ؛ لأنَّه أَطلقها وهو يَهوي من دابَّته للنزول [فكانت ألفَي ألفِ درهم][(١)].

[وحكى الصوليُّ أيضاً قال: مدح شاعرٌ يحيى بنَ خالد] فقال[(٢)]: [من الطويل]

سألتُ النَّدى هل أنت حرٌّ فقال لا ... ولكنني عبدٌ ليحيى بنِ خالدِ
فقلت شراءً قال لا بل وراثةً ... توارثني من والدٍ بعدَ والد[(٣)]

فأعطاه مئةَ ألفِ درهم، وكان كلَّما مرَّت بخاطره أعطاه مئةَ ألفٍ حتى نُكب.

[وحكى الخطيبُ[(٤)] عن إسحاقَ بنِ إبراهيمَ قال: كانت صلةُ يحيى بنِ خالد] إذا ركب[(٥)] لمن يتعرَّض له مئتي درهم، فركب ذاتَ يوم، فتعرَّض له [أديب] شاعرٌ فقال:

ياسَمِيَّ الحَصورِ يحيى أُتيحت ... لك من فضل ربِّنا جنَّتانِ
كلُّ من مرَّ في الطريق عليكمْ ... فله من نوالكمْ مئتان
مئتا درهمٍ لمثلي قليلٌ ... هي منكمْ للقابس العَجْلان

فقال له يحيى: صدقت، وأَمر بحمله إلى داره، فلمَّا رجع من دار الخليفةِ سأله عن حاله، فقال: تزوَّجتُ امرأة، وقد خيِّرت بين أن أؤدِّيَ مهرَها وهو أربعةُ آلافِ درهم، وإمَّا أن أطلِّق، وإمَّا أن أقيمَ بالمرأة حتى يتهيَّأَ نقلُها إلى منزل، وليس لي منزل. فأَمر له يحيى بأربعة آلافٍ للمهر، وأربعة آلافٍ لشراء منزل، وأربعةِ آلافٍ لما يحتاج إليه المنزل، وأربعةِ آلافٍ للدُّخول بها، وأربعةِ آلافٍ يستظهر بها، فانصرف وقد أعطاه عشرين ألفاً.

وقال إسحاقُ الموصليّ: أضقتُ إضاقةً شديدة، فأتيتُ يحيى بنَ خالد، فذكرتُ له ذلك، فقال: ما حضر عندي في هذا الوقتِ شيء، ولكن قد جاءني خليفةُ صاحبِ

(١) ما بين حاصرتين من (ب).
(٢) في (خ): ومدحه شاعر فقال.
(٣) العقد الفريد ١/ ٢٦٨ ، والبداية والنهاية ١٣/ ٦٨٠ دون نسبة.
(٤) في تاريخه ١٦/ ١٩٦ .
(٥) في (خ): وكانت صلته إذا ركب، وما بين معكوفين من (ب).

مصرَ يسألني أن أستهديَ صاحبَه شيئاً، وأَبيتُ عليه، وقد لحّ، وقد جاءك يطلب منك جاريتَك، فلا تَنقصْها من ثلاثين ألفَ دينار، فإنِّي سأستهديه إيَّاها. قال: فخرجتُ من عنده، فما شعرت إلَّا بالرَّجل قد جاءني وساومني الجارية، فقلت: لا أَنقصها عن ثلاثين ألفَ دينار، فاشتراها بعشرين ألفَ دينار، وكانت تساوي ألفَ دينار. ثم حملها إلى يحيى، فاستدعاني وقال: كم دفع لك في الجارية؟ قلت: بعتُها بعشرين ألفَ دينار، فقال: إنَّك لَخسيس، خذ جاريتَك، فهذا خليفةُ صاحبِ فارسَ قد جاء[في] مثل هذا، فلا تنقصْها من خمسين ألفَ دينار. فأخذتُها وخرجت، وإذا خليفةُ صاحبِ فارسَ قد جاء فساومني إيَّاها، فبعتها منه بثلاثين ألفَ دينار، ثم أتيتُ يحيى فأخبرته، وقال: ويحك، ألم تؤدِّبك الأولى عن الثانية! خذ جاريتَك، فقلت: جاريةٌ أَفادتني خمسين ألفَ دينارٍ ثم أملكها! لا والله، أُشهدك أنها حرَّة وقد تزوَّجتُها.

ولما تنكَّر الرشيدُ للبرامكة، بعث صالحاً صاحبَ الموصلِ[1] إلى منصور بنِ زيادٍ يقول له: قد وجب عليك عشرةُ آلافِ ألفِ درهم، فاحملها إليَّ اليوم، فإنْ فعل إلى قبلَ غروبِ الشَّمس وإلَّا فأْتِني برأسه من غيرِ مراجعة. قال صالح: فخرجتُ إلى منصورٍ فعرَّفته، فقال: ذَهَبتْ واللهِ نفسي، واللهِ ما أَملك ثلاثَ مئةِ ألفِ درهم فضلاً عن عشرة آلافِ ألف درهم. ثم قال: يا صالح، اِحملني إلى أهلي حتى أُوصي، فلمَّا دخل على الحَرَم، أَوصى، وارتفع صُراخ الحرمِ والجوار.

ثم قال منصورٌ لصالح: امضِ بنا إلى يحيى بن خالدٍ لعل اللهَ أن يأتي بالفَرَج على يده، فدخلا على يحيى، فبكى منصور، فقال: ما لَك؟! فقصَّ عليه القصَّة، فأطرق مفكِّراً، ثم دعا جاريتَه فقال: كم عندكِ من المال؟ فقالت: خمسةُ آلافِ ألفِ درهم، فقال: أعديها[2]، ثم بعث إلى ابنه الفضلِ قال: يا بُنيّ، كنتَ أَخبرتني أنَّك تريد أن تشتريَ ضيعةً بألفَي ألفِ درهم، وقد وجدتُ لك ضيعةً تُغِلُّ الشُّكر، وتبقى على ممرِّ الدهر، فابعث إليَّ بالمال، فبعث به إليه، وبعث إلى جعفرٍ فقال: يا بنيّ، ابعث لي

(١) في المنتظم ٩/ ١٩٠، والتذكرة الحمدونية ٢/ ١٩١: صاحب المصلى.

(٢) كذا، ولعلها: أعيريها. والله أعلم.

بألفِ ألفِ درهمٍ[١] لحقٍّ قد لزمني، فبعث به إليه، ثم فكَّر ساعة، ثم قال لخادمٍ على رأسه: أُدخل إلى دنانيرَ فقل لها: هاتِ العِقدَ الذي وهبه لك أميرُ المؤمنين، فجاءَ به فقال: هذا عقدٌ ابتعتُه لأمير المؤمنين بمئة ألفِ دينارٍ وعشرين ألفِ دينار، فوهبه لدنانير، وقد قوَّمناه عليك بألفَي ألفِ درهمٍ ليتمَّ المال، فخلِّ عن صاحبنا.

قال صالح: فأخذتُ المالَ ورددتُ منصوراً معي، فلمَّا صرنا إلى الباب تمثَّل منصورٌ وقال: [من الوافر]

فما بُقْيا عليَّ تركتماني ولكن خِفْتُما صَرَدَ النِّبالِ

قال صالح: فقلتُ في نفسي: ما أحدٌ أكرمَ من يحيى، ولا أحدٌ أردأَ من هذا النَّبَطي؛ إذ لم يشكرْ مَن أحيا نفسَه، وصرتُ إلى الرشيد، فعرَّفته ما جرى إلَّا إنشادَ البيت؛ خوفاً على منصورٍ أن يقتلَه، فقال الرشيد: قد علمتُ أنَّه لا يَسلم إلَّا بأهل هذا البيت، فاقبض المالَ وردَّ العِقد، فما كنت لأهبَ هبةً ثم أرتجعها.

قال صالح: وحملني غيظي من منصورٍ أنَّني عرَّفت يحيى ما أنشد، فأقبل يحيى يتحمَّل له العُذرَ ويقول: إنَّ الخائفَ لا يبقَى له لُبّ، وربَّما نطق بما لا يعتقد. فقلت: واللهِ ما أدري من أيِّ فعلَيك أعجب، من فعلك معه أو من اعتذارِك عنه؟ لكنِّي أعلم أنَّ الزمانَ لا يأتي بمثلك أبداً.

وقال بعضُ عمومةِ الرشيدِ ليحيى قبل نَكْبتِه: إنَّ هارونَ قد أحبَّ جمعَ المالِ لولده، وقد كثَّروا عليك وعلى أولادك وأصحابِك عنده، فلو نظرتَ إلى ضِياع أصحابِك وأموالِهم فتقرَّبتَ بها إلى ولده أَمِنتَ غائلَتَه، فقال: هيهاتَ هيهات، والله لَأَن تزولَ نعمتي عني أحبُّ إليَّ من أن أُزيلَها عن قومٍ كنتُ سبباً في إيصالها إليهم، وكلُّ كائنٍ مَقضيّ. وفيه يقول أبو قابوس الحِميَري: [من البسيط]

رأيتُ يحيى أتمَّ اللهُ نعمتَه عليه يأتي الذي لم يأتِه أَحدُ
يَنسى الذي كان مِن معروفهِ أبداً إلى الرِّجال ولا ينسى الذي يَعِدُ[٢]

(١) في (خ): بألف ألف ألف درهم. والمثبت من المنتظم ٩/ ١٩١، والتذكرة الحمدونية، والبداية والنهاية ١٣/ ٦٧٩.
(٢) تاريخ بغداد ١٦/ ١٩٧، ووفيات الأعيان ٦/ ٢٢٥.

وقال العُتْبي: مرض يحيى، فكان إسماعيلُ بن صبيحٍ إذا عاده جلس عند رأسِه، ودعا له، ثم يخرج فيسأل الخادمَ عن نومه وأكلِه وشرابِه ولا يسأل يحيى، فلمَّا برئ قال: ما عادني[١] إلَّا إسماعيلُ بن صبيح.

[وحكى الخطيبُ[٢] عن محمَّد بنِ يحيى النَّديمِ قال:] قال يحيى: ثلاثةُ أشياءَ تدلُّ على عقول أربابِها: الهديَّة، والكتاب، والرسول. [قال:] وقال لولده: اكتبوا أحسنَ ما تسمعون، واحفظوا أحسنَ ما تكتبون، وتحدَّثوا بأحسنِ ما تحفظون.

و[قال عليُّ بن عيسى:] كان يقول: إذا أَقبلت الدنيا فأَنفق؛ فإنَّها لا تفنى، وإذا أَدبرت فأَنفِق؛ فإنَّها لا تبقى.

وقال: حاجبُ الرجلِ عاملُه على عِرضه. ومَن بلغ رتبةً فتاهَ بها، كان محلُّه دونها.

وقال: يدلُّ على حِلم الرجلِ سوءُ أدبِ غلمانه. وقال لابنه: خذ من كلِّ شيءٍ طرفاً؛ فإنَّ مَن جهل شيئاً عاداه.

وقال [الأصمعيّ: كان يحيى يقول][٣]: الدنيا دُوَل، والمالُ عارية، ولنا بمَن كان قبلَنا أُسوة، وبمن بعدنا عِبرة.

واختطَّ جعفرٌ داراً، فقال له أبوه: يا بُنيّ، هي قميصُك، فإن شئتَ فضيِّق، وإن شئت فوسِّع.

وكتب إلى هارونَ من الحبس رُقْعةً يقول فيها: لأمير المؤمنين وخليفة ربِّ العالمين، من عبدٍ أَسلمتْه ذنوبُه، وأَوْبَقتْه عيوبُه، وخذله شقيقُه، ورفضه صاحبُه ورفيقه، فعَثَر به الزَّمان، ونزل به الحَدَثان، فحلَّ في الضِّيق بعد السَّعة، والبؤسِ بعد الدَّعة، ولبس البلاءَ بعد الرَّخاء، وافترش السخط بعد الرِّضا، واكتحل السُّهادَ وعَدِمَ الرُّقاد، فساعتُه شهر، وشهرُه دهر[٤]، جَزَعاً يا أميرَ المؤمنين -قدَّمني اللهُ قَبلَك- على ما فات من قُربك، لا على شيءٍ من المواهب؛ لأنَّ الأهلَ والمالَ كانا عارية، والعارِيَّةُ

(١) في (خ): ما دعاني. والكلام ليس في (ب).

(٢) في تاريخه ١٦/ ١٩٥. وما بين حاصرتين من (ب).

(٣) ما بين حاصرتين من (ب).

(٤) في العقد الفريد ٥/ ٦٨، والمحاسن والمساوئ للبيهقي ص٥٣٥: وليلته دهر.

مردودة، وأمَّا ولدي فأُصيب بذنبه وحقِّه، وما أخشى عليك الخطأَ في أمره، ولا أنَّك جاوزتَ به فوق حدِّه، فتفكَّر في أمري، واذكرْ حالي، واعفُ عن ذنبٍ مِن صاحبه الزَّللُ ومنك الإقالة، وإنَّما أعتذر إليك حتى ترضى، فإذا رضيتَ، لم يتعاظمْ ذنبي عندك غفرانُه. ثم كتب في أَسفلها: [من مجزوء الكامل]

قلْ للخليفة ذي الصَّنا ... ئعِ والأيادي العاليهْ
وابنِ الخلائفِ من قُري ... شٍ والملوكِ الهاديه
مَلِكَ الملوكِ وخير مَن ... ساسَ البرايا الماضيه
إنَّ البرامكةَ الذيـ ... ـن رُموا لديك بداهيه
عمَّتهمُ لك سَخطةٌ ... لم تُبقِ منهمْ باقيه
فكأنَّهمْ في حالهم ... أَعجازُ نخلٍ خاويه
صُفْرُ الوجوه عليهمُ ... خِلَعُ المذلَّة باديه
بَعدَ الوزارة والإما ... رةِ والأمورِ السامية
أضْحَوا وجُلُّ رضاهمُ[1] ... منك الرِّضا والعافيه
يا لَهْفَ نفسي حَسْرةً ... ما للزَّمان ومالِيه
يا عطفةَ المَلِكِ الرِّضا ... عُوديْ علينا ثانيه

فلمَّا وقف هارونُ عليها، وقَّع على رأسها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ الآية[النحل: ١١٢]، وكتب في أسفلها:

يا آلَ برمكَ إنَّكمْ ... كنتمْ ملوكاً عاتيهْ
فطَغَيتمُ وبَغَيتمُ ... وكفرتمُ نَعمائيَه
أَجرى القضاءُ عليكمُ ... ما خنتموه علانيه
مِن تركِ نصحِ إمامكمْ ... عند الأمورِ البادية
هذي عقوبةُ مَن عصى ... مَعبودَهُ[2] وعصانيه

(١) في العقد الفريد ٥/ ٦٩، والمحاسن والمساوئ ص٥٣٦: مناهم.
(٢) في المحاسن والمساوئ ص٥٣٨: من فوقه.

وقال الفضلُ لأبيه[١]: يا أَبَة، بعد الأمرِ والنَّهي والأموالِ العظيمةِ أَصارنا الدهرُ إلى القيود ولُبسِ الصوفِ والحبوس! فقال له: يا بُني، دعوةُ مظلومٍ، سَرَت بليل، غَفَلْنا عنها ولم يغفُل اللهُ عنها، ثم قال يُنشد: [من الرمل]

ربَّ قـومٍ قـد غـدَوا فـي نـعـمـةٍ زَمَـنـاً والـدَّهـرُ ريَّـانُ غَـدَقْ
سـكـت الـدهـرُ زمـانـاً عـنـهـمُ ثـم أَبـكـاهـم دمـاً حـيـنَ نَـطَـقْ

[ذكر دخول زوجة يحيى على هارون:

حكى العُتبيُّ والهيثمُ بن عَديٍّ عن] الفضلِ بن الرَّبيع [قال][٢]: كانت أمُّ جعفرِ بن يحيى، وهي فاطمةُ بنت محمَّد بن الحسين بن قَحْطَبة، وقيل: اسمُها عُبادة، وليست أمَّ الفضل [التي أَرضعت الرشيدَ بلِبانها] وكان هارونُ يُكرمها كما يفعل بأمِّه الخَيزُران، ويتبرَّك برأيها ولا يحجبها عنه، ويسمِّيها: أمِّي، فلمَّا نكب البرامكةَ حجبها عنه، فطلبت الإذنَ عليه، فحُجِزَت عنه، فلمَّا طال ذلك عليها، خرجت كاشفةً وجهَها، حاسرةً حافية، واضعةً لِثامها، فوقفت ببابه، فأعظم الناسُ ذلك، فدخل الحاجبُ فقال: أمُّ أميرِ المؤمنين في حالٍ تَسرُّ الشامتَ وتسوء الصَّديق، فأَذن لها، فدخلت، فلمَّا رآها على تلك الحال، قام حافياً فتلقَّاها من باب المجلس، وأكبَّ يقبِّل رأسَها ومواضعَ يديها، وأَقعدها معه في فراشه، فبكت وقالت: يا أميرَ المؤمنين، أَيعدو علينا الزَّمان، ويخوِّفنا الأَعوان[٣]، ونجرُّ ذيل الهوان، وقد ربَّيتك في حِجري، وأخذتُ بذلك الأمانَ من دهري!؟ فقال: وما ذاك يا أمَّاه؟ قالت: ظِئرُك يحيى وأبوك بعد أبيك، فقال لها: أمرٌ سبق وقضاءٌ نفذ، فقالت: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩] قال: فهذا أمرٌ لم يمحُه، فقالت: الغيب محجوبٌ عن النبيِّين، فكيف عنك يا أميرَ المؤمنين. فأَطرق ساعةً ثم رفع رأسَه وقال: [من الكامل]

---

(١) في تاريخ بغداد ١٦/ ١٩٨، والمنتظم ٩/ ١٩١ أن القائل جعفر بن يحيى. وفي حاشية الأصل من المنتظم أنه الفضل. وأبهمه الذهبي في تاريخ الإسلام ٤/ ١٠٠٠، وابن كثير في البداية والنهاية ١٣/ ٦٧٩. ونسب القول الذهبي في السير ٩/ ٩٠ لأولاده.

(٢) في (خ): قال الفضل بن الربيع، وما بين معكوفين من (ب).

(٣) في العقد الفريد ٥/ ٦٣: ويجفونا خوفاً لك الأعوان.

وإذا المنيّةُ أنشبت مِخلابَها أَلفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنفعُ[١]

فقالت: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]الآية، [فأطرق هارونُ مليًّا، ثم][٢] أنشد: [من الطويل]

إذا انصرَفَت نفسي عن الشيءِ لم تَكَدْ إليه بوجهٍ آخِرَ الدهرِ تُقْبِلُ

فقالت: وهو القائل:

ستُقطَع في الدُّنيا إذا ما قطعتَني يمينُك فانظر أيَّ كفٍّ تبدَّلُ[٣]

فقال: قد رضيت. فلم تزل تُرَقِّقه[٤]، وأنشدت: [من الكامل]

وإذا افتَقَرْتَ إلى الذَّخائر لم تجدْ ذُخْراً يكون كَصالح الأَعمالِ[٥]

فقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] فلمَّا آيسها، أخرجت حُقًّا[٦] من زمرُّد أخضر، فوضعته بين يديه وفتحت عنه قُفلاً من ذهب، فأَخرجت منه ثناياه وذؤابتَه وخَفْضَتَه، وقد غَمَست الجميعَ في المِسك، وقالت: هذه ثناياك وذؤابتُك، وأنا أتشفَّع بها إليك في يحيى، فلثمه هارونُ واستعبر باكياً، وبكى أهلُ المجلس، ولا يُظنُّ ذلك البكاءُ إلا رحمةً ليحيى، وسبق البشيرُ إلى يحيى، ثم أعاد هارونُ الجميعَ إلى الحُقِّ وقال لها: بحسن ما حفظتِ الوديعة، فقالت: وأنت أهلٌ للخير والمكافأة، فأَعاد إليها الحُقَّ ثم قال: أَشتريه منك؟ قالت: نعم، قال: بكم؟ قالت: بعفوك عمَّن لم يُسخطْك قطّ، فقال: أما لي عليك من الحَقِّ مثلُ الذي لهم، قالت: بلى، لكن أنت أعزُّ عليَّ منهم وهم أحبُّ إليَّ منك، قال: فتسلِّي بثمن الحُقِّ مهما أردتِ عنهم، فوَجَمَتْ، ورَمَت الحُقَّ بين يديه وقالت: قد وهبتُه لك، وقامت فخرجت، وبقي مبهوتاً لا يُحير جواباً.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ص٣، وروايته: أنشبت أظفارها.

(٢) ما بين معكوفين من العقد ٥/ ٦٣.

(٣) البيتان من قصيدة لمعن بن أوس. انظر معجم الشعراء ص٣٢٣، والخزانة ٨/ ٢٩٢.

(٤) من قوله: وأنشد: إذا انصرفت، إلى هنا ليس في (ب).

(٥) البيت للأخطل، وهو في ديوانه ص١٥٨.

(٦) الحقة: الوعاء من خشب. القاموس المحيط (حقق).

قال: فو اللهِ ما عادت إليه، ولا سُمعت لها أنَّة، ولا رُئيت لها عَبرة.

و[قال سهلُ بن هارون:][1] كتب يحيى إلى هارونَ ورقةً وأرسلها إلى زبيدة، فناولَتْه إيَّاها وقتَ لذَّته، فكتب في أسفلها: عِظَمُ ذنبِك أَمات خواطرَ العفوِ عنك. فلمَّا قرأها يئس منه.

ذِكر وفاتِه:

[قال الخطيب:][2] توفِّي [يحيى بنُ خالد] في حبس هارونَ بالرَّافقة لثلاثٍ خَلَون من المحرَّم سنة تسعين ومئة، وهو ابنُ سبعين سَنَة، وصلَّى عليه ابنُه الفضل، ودُفن على شاطئ الفراتِ في رَبَض هَرْثَمَة. ووجدوا في جُبَّته رقعةً فيها مكتوبٌ بخطِّه: قد تقدَّم الخصمُ، والمدَّعى عليه على الأَثر، والقاضي هو الحاكمُ العَدْلُ الذي لا يَجور ولا يحتاج إلى بيِّنة[3]، فحُملت الرُّقعة إلى الرَّشيد، فقرأها، فلم يزل يبكي يومه، وبقي أياماً يتبيَّن الأَسى في وجهه [وفي رواية: وفي آخرها: وستعلم فتندم].

و[يقال: إنَّ الرشيد] لمَّا قرأ الرقعةَ قال [وكتب]: الحاكمُ الذي رضيتَ به في الآخرة هو الذي أَعدى عليك الخصمَ في الدنيا، وهو ممَّن لا يُتَّهم في قضائه. [قالوا: وليس هذا بجوابٍ ليحيى، لعدم التَّساوي في الدنيا][4].

وكان ليحيى من الولد الفضلُ وجعفرٌ وموسى ومحمَّد وغيرُهم، فولَّى المأمونُ موسى بنَ يحيى المدينة، وهو شقيقُ جعفر، وولَّى الفضلَ دمشق.

وكان المأمونُ محسناً إلى أَولاد يحيى [وسنذكر ذلك]، ويُثني عليهم وعليه ويقول: أهلُ بيتٍ خُصُّوا بالفضل والجودِ ومكارمِ الأخلاق ما لم يوجدْ ذلك في غيرهم، وينشد: [من الطويل]

إذا قَـدِمـوا بـطـحـاءَ مـكَّـةَ أَشـرقـت ... بيحيى وبالفضل بنِ يحيى وجعفرِ

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) في تاريخه ١٦/١٩٩. وما بين حاصرتين من (ب).

(٣) بعدها في (خ): وستعلم فتندم، وستأتي قريباً.

(٤) ما بين حاصرتين من (ب).

فما خُلقتْ إلَّا لجودٍ أكفُّهمْ وأقدامُهمْ إلَّا لأعوادِ منبر[١]

و[حكى القاضي يحيى بنُ أكثمَ قال:] كان [المأمون][٢] يقول: لم يكن كيحيى وولدِه في الكفاية والجودِ والبلاغة والشَّجاعة نظير، ولقد صدق القائل: [من مجزوء الرجز]

أولادُ يحيى أربعٌ كالأربع الطبائعِ
فهم إذا اختبرتَهم طبائع الصَّنائع

فقال له ابن أكثم: الكفايةُ والجودُ والبلاغة [نعرفها]، ففيمن[٣] الشَّجاعة؟ فقال: هي واللهِ في الكلّ، خصوصاً في موسى، وقد عزمتُ على أن أولِّيَه ثَغْرَ السِّند.

وكان يحيى يُجري على سفيانَ بنِ عيينةَ في كلِّ شهرٍ ألفَ درهم، فسُمع سفيان يقول في سجوده: اللهمَّ إنَّ يحيى قد كفاني أمرَ دنياي فاكفِه أمرَ آخرته. فلمَّا مات يحيى، رآه بعضُ إخوانه في المنام، فقال: ما صنع اللهُ بك؟ فقال: غفر لي بدعوة سفيان. [وقد ذكرناه بمعناه في ترجمة جعفرِ بن يحيى، إلَّا أنَّه ليس فيه ذِكرُ المنام][٤].

حكايةٌ جرت في أيَّام المأمون [تتعلق بالبرامكة]:

حدَّثنا غيرُ واحدٍ عن محمَّد بنِ عبد الباقي البزَّاز بإسناده عن] مَسْرورٍ الخادم قال[٥]: استدعاني المأمونُ فقال لي: قد أكثر عليَّ أصحابُ [أخبار] السِّرِّ أنَّ شيخاً يأتي خرابَ البرامكة، فيبكي وينتحبُ طويلاً، ثم يُنشد شعراً يَرثيهم وينصرف، فاركب أنت ودينارُ ابن عبد اللهِ واستترْ بالجدران، فإذا جاء وشاهدتماه وسمعتما ما يقول، فأْتياني به.

فركبنا مُغَلِّسين، وأتينا المكان فاختفينا، فلمَّا طلع الفجر، جاء خادمٌ أسودُ وبيده كرسيٌّ من حديد، فطرحه، وجاء على أَثَره كَهْل، فجلس عليه وتلفَّت فلم يَر أحداً، فبكى وانتحب، حتى قلتُ: فارق الدُّنيا، وأَنشد: [من الطويل]

---

(١) البيتان لمحمد بن مناذر، انظر طبقات الشعراء ص١٥٢، والأغاني ١٨/ ٢٠١ ، ووفيات الأعيان ٦/ ٢٢٤.

(٢) ما بين حاصرتين من (ب).

(٣) في (خ): ففيم، والمثبت من تاريخ بغداد ١٦/ ١٩٧ وما بين معكوفين منه، ووفيات الأعيان ٦/ ٢٢٢ .

(٤) ما بين حاصرتين من (ب).

(٥) في (خ): قال مسرور الخادم.

ولـمَّـا رأيـتُ الـسـيـفَ خـالـطَ جـعـفـراً

الأبيات المتقدمة[١]. فلمَّا قام قبضنا عليه، فقال: ما تريدان منِّي؟ قلنا: أميرُ المؤمنين يستدعيك، وهذا دينارُ بن عبدِ الله وأنا مسرور، فأَبلس وقال: إنِّي لا آمنه على نفسي، فأَمهِلني حتى أُوصي، قلت: شأنك. فسرنا معه، فوقف على دُكَّان رجلٍ واستدعى دواةً وبيضاء، وكتب فيها وصيَّته ودفعها إلى خادمه، وسرنا به، فلمَّا مَثُل بين يدي الخليفة زَبَره وقال: مَن أنت؟ وبم استحقَّ البرامكةُ منك ما تصنع؟ فقال غيرَ هائبٍ ولا مُحْتَشِم:

يا أميرَ المؤمنين، إنَّ للبرامكة عندي أياديَ خَضِرة، فإنْ أمر أميرُ المؤمنين حدثتُه ببعضها، فقال: هات، فقال: أنا المنذرُ بن المغيرةِ الدِّمشقي، نشأتُ في نعمة، فزالت عني حتى أَفضيتُ إلى بيع داري، وأمْلَقتُ إلى الغاية، فأُشير عليَّ بقصد البرامكة، فخرجتُ إلى بغدادَ ومعي نيِّفٌ وعشرون امرأةً وصبياً، فدخلتُ بهم إلى مسجد ببغداد، ثم خرجت وتركتهم جِياعاً لا نفقةَ لهم، فمررتُ بمسجدٍ فيه جماعةٌ عليهم أحسنُ زِيّ، فجلست معهم أُردِّد في صدري ما أُخاطبهم به، فتجد نفسي عنده ذلَّ السؤال[٢]، وإذا خادم قد أزعج القوم، فقاموا وقمت معهم، فدخلوا داراً كبيرَة ودخلت، فإذا بيحيى بن خالدٍ جالسٌ على دَكَّةٍ وسطَ بستان، فجلسنا، وكنا مئةَ رجلٍ ورجل، فخرج مئةُ خادمٍ وخادم، في يد كلِّ واحدٍ مِجْمَرةٌ من ذهبٍ فيها قطعةُ عَنْبَر، فسَجَروا العود، وأقبل [يحيى] على القاضي وقال: زوِّج ابنَ عمِّي هذا بابنتي عائشة، فخطب وعقد النِّكاح، وأخذ بالنُّثار من فُتات المسكِ وبنادقِ العنبر وتماثيلِ النَّدّ، والتقط الناسُ ولقطت، ثم جاءنا الخدمُ في يد كلِّ واحدٍ صينيةٌ فيها ألفُ دينارٍ مخلوطةٌ بالمسك، فوضع بين يدي كلِّ واحدٍ صينية، فأَقبل كلُّ واحدٍ يأخذ الدنانيرَ في كمِّه والصينيةَ تحت إبطه ويخرج، وبقيتُ أنا وحدي لا أَجسر أَفعلُ ذلك، فغمزني بعضُ الخدمِ وقال: خذها وقم، فأَخذتها وقمت، وجعلت أمشي وأَلتفت خوفاً من أن تؤخَذَ مني، ويحيى يلاحظني من حيث لا أَفطُن.

(١) ص٩٩، وانظر الخبر في المنتظم ٩/ ١٤٦.

(٢) في المنتظم ٩/ ١٤٦: فتحيد نفسي عن ذل السؤال.

فلمَّا قاربت السِّتر، رُددتُ، فيئستُ من الصينية، فجئت، فأمرني بالجلوس وسألني عن حالي، فحدَّثته بقصَّتي، فبكى ثم قال: عليَّ بموسى، فجاءه، فقال: يا بُنيّ، هذا رجلٌ من أولاد النِّعم قد رمته الأيامُ بصرفها، فخذه واخلطْه بنفسك، فأخذني فخلع عليّ، وأمرني بحفظ الصِّينية، فكنتُ في العيش يومي وليلتي، ثم استدعى أخاه العباسَ وقال: إنَّ الوزير سلَّم إليَّ هذا وأريد الرُّكوبَ إلى دارِ أميرِ المؤمنين، فلْيكن عندك اليوم، فكان يومي مثلَ أمسي، وأَقبلوا يتداولوني وأنا قَلِقٌ بأمر عيالي، ولا أتجاسر أن أذكرَهم، فلمَّا كان اليومُ العاشر، أُدخلت على الفضل، فأقمتُ عنده يومي وليلتي، فلمَّا أصبحت جاءني خادمُه فقال: قم إلى عيالك وصبيانك، فقلت: إنَّا لله، ذَهَبَت الصينيةُ وما فيها، فليت هذا كان من أوَّل يوم، وقمت مع الخادمِ أمشي، فأخرجني من الدار، فازداد يأسي، ثم أَدخلني إلى دارٍ كأنَّ الشمسَ قد طلعت من جوانبها، وفيها من صنوف الآلاتِ والفُرُش، فلما توسَّطتها، رأيت عيالي يرتعون في الدِّيباج والحريرِ وفنونِ الأَطعمة، وقد حملت إليهم مئة ألفِ درهمٍ وعشرة آلافِ دينار، وسلَّم إليَّ الخادمُ صكًّا بضيعتَين جليلتين وقال: هذه الدارُ وما فيها والضَّيعتان لك.

فأقمتُ مع البرامكة في أَخفضِ عيشٍ إلى الآن، ثم قصدني عَمرو بنُ مَسعدةَ في الضَّيعتين، وأَلزمني من خَراجهما مالا يفي [به] دخلُهما، فكلَّما لحقتني نائبة، قصدتُ دورَهم فبكيتُهم، فاستدعى المأمونُ عَمرَو بن مسعدةَ وأمره أن يردَّ عليه ما استخرج منه، ويقرِّرَ خراجه على ما كان عليه في أيَّام البرامكة، فبكى الرجلُ بكاءً شديداً، فقال له المأمون: أَلم أستأنفْ بك جميلاً! قال: بلى، ولكن هذا من بركةِ البرامكة، فقال[1]: امضِ مصاحَباً؛ فإنَّ الوفاءَ مبارك، وحسن العهدِ من الإيمان [انتهت ترجمته والله أعلم، والحمدُ لله وحده، وصلَّى اللهُ على محمَّد].

(١) في (خ): وأنشد.